# ثيودوروس المصيصي
# (٣٥٢؟-٤٢٨)

ألأب منصور المخلّصي

## المقدّمة

تعتبركنيسة المشرق مار ثيودوروس كمعلمها الرسمي الكبير ، وتحترمه قديسا ولاهوتيا أصيلا ، وتعدهُ أعظم مفسر للكتاب المقدس وأوفى مرشد للتقدم في الحياة الروحية ولفهم الرموز الطقسية . لمدة ١٥ قرنًا عاشت كنيسة المشرق من تعاليمه وشربت من هذا المصدر الفريد ماء الخلاص .

لم يُقبل ثيودوروس بين صفوف القديسين المعروفين في روما أو في القسطنطينية ، أو في الأسكندرية . ولم يعرف معلمًا كتابيًا لاهوتيًا ، إلا منذ منتصف القرن العشرين لما بدأ اكتشاف كتاباته ونشرها مع تجديد دراسة وتحليل الافكار بطريقة علمية صحيحة بحيث ان مقصود هذا الشخص يظهر الآن بوضوح أفضل . في القرن الخامس ، خلال حياته أُعتبر قديسا ومعلما للأيمان الصحيح وراعيا للكنيسة ليس له مثيل ، لكن بسبب الجدال حول سر شخص يسوع المسيح في القرن السادس ، حَكم عليه الامبراطور يوستينيانوس البيزنطي (٥٥٣) لأسباب سياسية ودينية ، إذ إعتبره هرطوقيًا وأمر بإحراق كتاباته ومسح اسمه من اللوحات التذكارية الكنسيّة ، مما أساء الى سمعته كرجل كنسي عظيم . كان فعلا ، حسب الوثائق التاريخية اسقفا قديسا ، كما يتبين من حياته الزهدية والرعوية ، وقد جاهد كثيراً في الدفاع عن الايمان الكنسي الصحيح ضد الهراطقة ، على أساس التعبير الرسولي التقليدي كما ظهر في المجمعين النيقاوي (٣٢٥) والقسطنطيني الاول (٣٨١) . لكن قبل كل شيء كان ثيودوروس مفسراً للاسفار المقدسة ، وحياته كلها كرّسها للتفسير العلمي الحاذق . من الكتابات القليلة التي وصلت الينا نجد فيها صوت رجل كنسي مفكّر مسيحي يحاول دائما أن يكتشف الاعماق الالّهية تحت رموز الكلمات والطقوس ، ومسيحي مشتاق كل الاشتياق الى الحياة ضمن جماعة الكنيسة الأرضية والسماوية حيث يتم التدبير الخلاصي بتجديد الانسان على صورة اللّه الاصلية .

- ١ -

## سيرة الحياة

وُلد ثيودوروس في أنطاكية نحو سنة ٣٥٠-٣٥٢ ، من عائلة مسيحية محافظة ، وكان له أخٌ يدعى بوليخرونيوس ، الذي أصبح اسقفا على آفاميا . درس ثيودوروس العلوم اليونانية : الفلسفة والادب والبلاغة ، في انطاكية عند ليبانيوس المعلم البلاغي السفسطي المشهور (نحو سنة ٣٦٦) ، وذلك مع صديقه يوحنا الملقب بـ « الذهبي الفم » . ترك مدرسة ليبانيوس عندما بلغ عمره ١٨

سنة ، وقصد الجامعة لدراسة المواضيع اللازمة لوظيفة المحاماة .

وبعدما اعتمد نحو سنة ٣٦٨ ، بتأثير من يوحنا الذهبي الفم ، ودخل الدير ليترهب تحت إرشاد ديودوروس الذي درّس الاسفار المقدسة بطريقة علمية نقدية شديدة . لكن بعد مدة قصيرة (٣ اشهر) ، قبل ان يبلغ ثيودوروس من العمر ٢٠ سنة ، خرج من الدير ورجع الى جامعة الحقوق وقصد الزواج . في هذه الاثناء استدعاه يوحنا صديقه برسالة ليرجع الى الحياة الديرية في الـ «آسكيتيريون»، قائلاً : «بكيتُ ... لانك مسحتَ اسمك من جدول الإخوة وكسرتَ محتقرا عهدك مع المسيح ، ولهذا الترك تنتظرك عقوبة ... ان التاجر ، بعد غرق سفينته ، والرياضي بعد خسارته في المسابقة ، والجندي بعد الهرب ، يمكنهم ان يرجعوا ... أما أنت ، فماذا ربحت من الغنى والسلطة والشرف ؟ أصدقاؤك يصلّون من اجلك ، ويتأمّلون خلاصك ، وأنت ؟ الذي يحيا من أجل المسيح ، هو الذي يحصل على الحرية الحقيقية . اني أحاول إنقاذك بسفينة هذه الرسالة» .

وبالفعل قبل ثيودوروس كلام النعمة الموجّه إليه من قلب رفيقه ، ورجع الى الدير ، طالبًا القبول لسنة تجريبية . لقد رفضه الرهبان في بادىء الأمر ، لكن من المحتمل أنه قُبل مرة ثانية بين سنة ٣٧٠-٣٧١ ، وأنه بقي في الدير لمدة ١٢ سنة . هكذا ترك ثيودوروس العالم ووفرة أمواله وشهرته كمحامٍ ناجح وبارز في فن البلاغة ، ليعيش حياة الكمال ويكرّس نفسه لدرس الكتاب المقدس ، وذلك تحت ارشاد المعلّمين ديودوروس (التفسير الكتابي) وقارتيريوس (النظام الاخلاقي الزهدي) وفلافيانوس (التعليم العقائدي). في الدير عاش راهبا متقدمًا في القداسة ، وطالبًا مجتهداً في درس الاسفار المقدسة وتفسيرها ، فأصبح خبيراً ، وخلال الفترة نفسها أخذ يؤلّف بعض التفاسير الكتابية ، ومؤلفه الاول «التفسير في المزامير» الذي يرجع الى ذلك الوقت ، وكذلك «التفسير في الانبياء الإثني عشر» . تم ذلك تحت تأثير ديودوروس ، وفي سبيله أخذ ثيودوروس موقفا من التفسير المجازي الاسكندري . أخيراً ، نحو سنة ٣٨٣ ، رُسم كاهنًا على يد فلافيانوس معلمه الذي أصبح أسقفًا على انطاكية ، خليفة ميليطيوس . حسب المصادر كان ثيودوروس يدافع عن الايمان الصحيح ، وفي مواعظه فسّر اللاهوت الكنسي ، ورفض تعاليم آريوس وآونوميوس ، وآبولیناریوس ، والاوريجانوسيين والمجوس ، دفاعًا عن الوحدة الكنسية خصوصًا في فترة الانقسامات بين صفوف المؤمنين في انطاكية .

في نحو سنة ٣٨٣ نقل ثيودوروس الى طرسوس ، وفي سنة ٣٩٢ رُسم أسقفًا على مصيصة (قيليقيا) . وعند المؤرخين يرد بعض تفاصيل ، حول هرطوقي اسمه مقيدونيوس البيزنطي ، الذي كان يزرع الشكوك في قلوب المؤمنين بشأن جوهر الروح القدس ، قائلا إنه أقل من الابن ، ولشدّة أسلوبه شكل خطرا كبيرا على الايمان الصحيح . لذلك عقد الأساقفة اجتماعًا في مدينة آنازربا ، لحوار مفتوح في موضوع الروح القدس . وفرض الآباء على ثيودوروس الدفاع عن التعليم الصحيح . لكن عندما قال مقيدونيوس الاسقف إنه لا يقبل قسًا بسيطا يجادل الاساقفة ، رسمه الآباء أسقفًا ليمكنّوه من المجادلة على المستوى الرسمي نفسه في تعليم مقيدونيوس . فيما بعد عُيّن أسقفا على مدينة مصيصة الوثنية ، التي بفضل جهوده والتزامه بالتبشير والتعليم ، أصبحت مسيحية

بصورة كاملة . توضيحا لاهتمامه بأمور الابرشية الروحية ، حفظت لنا قصتان ، أولهما تخبرنا بحـــادث تمثال صنم اسمه «موصيص» وضعه الوثنيون بقرب حائط الكنيسة الى جانب موضع المذبح ، ثم خلال الصلاة وقع الحائط وانقلب على التمثال فكسره . ونتيجة هذه الاعجوبة آمن هناك كثيرون وطلبوا العماذ . أما القصة الثانية فتخبرنا بشخص يهودي طلب العماذ . وثيودوروس حسب عادته ، يُحضّر الموعوظين لمدة معينة طويلة ، وكان يكرز ثلاث مرات يوميا . لكن هذا اليهودي تُوفّي غفلةً قبل نهاية التحضير . حزن ثيودوروس وذهب الى المقبرة حيث أخذ يصلّي على قبر اليهودي ، وأقامه ليعمذّه . ثم ، حسب ارادة الرجل نفسه ، تركه ميتا في راحة الخلاص . يبدو ان ثيودوروس إلتقى بثيوفيلوس الاسكندري والامبراطور ثيودوسيوس الاول ، في القسطنطينية خلال مجمع عقد هناك سنة ٣٩٤ ، وتعجب الامبراطور من سعة علمه وصحة ايمانه . دعاه الامبراطور ليكرز في القصر ، وأثّرت الكرازات في اهل البلاط ، حتى ان الامبراطور قال : «لم اجد مثل هذا المعلم قط» . يمدحه أيضًا هيبا الرهاوي ، في رسالته الى ماري الفارسي ، لموقفه الشديد تجاه التعاليم الهرطوقية ، وتعليمـــــه الذي بلغ الكنائس البعيدة ، ويقول ثيودوريطس المؤرخ إنه كان «المبشّر بالحقيقة» و «معلم الكنيسة أجمع» .

لما طُرد يوحنا ذهبي الفم مرة ثانية من كرسيه القسطنطيني ، حاول ثيودوروس الدفاع عنه عند الامبراطور آركاديوس ، لكن منعته الملكة من التدخّل . ثم كتب رسالة الى صديقه ليشجّعه في المنفى ، وردّ عليه يوحنا قائلا : «لا انسى حبك ابدا ، الحب الأصيل العميق ، الصريح من دون مصلحة ، المحفوظ على أمد السنين ، والذي ظهر الآن ... إني عارف بجهودك الطويلة ، بالكلام والعمل من أجلي ... وحب قلبك الساهر الوطيد ، تعزية لي في المنفى البعيد» (الرسالة ١١٢و ٢٠٤) . يذكر ذلك ايضا في «اخبار سعرد» ، حيث نقرأ : «ان ثيودوروس كتب الى الامبراطوركتابا لطيفا يسأله في أمره . فمنعته زوجة الامبراطور من اجابته . فكتب يوحنا اليه يشكره على فعله ، قبل موته في ثامنفي بسنتين» . وفي الاخبار نفسها ترد قصة عن ثيودوروس الذي يوما ما ، «ارتفع عنه تأييد نعمة الروح ليفهم رسائل مار بولس ويفسرها . فما تهيّأ له ان يستنبط تفسير حرف واحد ولا أن يعرف معناه . فبدأ يصلي ويسأل ان يعود اليه ما فارقه من النعمة ... فلجأ الى قبر القديسة (تقلة) ... ومن خلال الصلاة رأى فيها كهلاً حسن الشيب ، بهيّ المنظر ، جالسًا على كرسي عند القبر ... «فلما سأله دنا ذلك الكهل من ثيودوروس ورسم صليبا على صدره واعطاه اربعة عشر مفتاحا وقال له : «افتح بهذه كل قفل» . وبفضل هذه الرؤيا إنفتح لثيودوروس كل ما اراده من تفاسير الرسائل البولسية الاربع عشرة . وخلال هذه الفترة كان ثيودوروس يتبادل الافكار مع الشـــخصيات المعروفة ، مثل باسيليوس الذي قدم له « التفسير في يوحنا » ، وغريوريوس النزينزي ، وحتى قورلّس الاسكندري نفسه .

كتب ثيودوروس «في سر التجسد» و «ضد ابوليناريوس» (بين ٣٨٣-٣٩٢) ، ثم «في الروح القدس ضد المقيدونيين» . لكن خصوصًا بعد وفاة يوحنا أخذ يكتب كثيرا ، ووضع التفاســـير

«في انجيل يوحنا» (٤٠٤-٤١٠) ، «في الرسائل البولسية الصغيرة» (٤١١-٤١٥) . كما كتب تفسيراً متسلسلاً في الاناجيل والرسائل ، وركّز على موضوع سرّ شخص المسيح ضد الهراطقة .

يظهر ايضاً أنه استقبل عنده يوليانوس الايكلانوسي الايطالي (البيلاجياني) (نحو ٤٢٠) ، لمدة قصيرة . وبعدما أكمل اسقفيته لمدة ٣٦ سنة ، توفي ثيودوروس في نهاية سنة ٤٢٨ ، وحدث ذلك - حسب تقليد أسطوري - بعد أيام قليلة من استضافة نسطوريوس عنده ، وهو في الطريق الى القسطنطينية . أخيراً دُفن في مصيصة الى جانب قبر القديسة تقلة . ولأنه حارب الهراطقة ، وعلّم التعليم الصحيح لمدة ٥٠ سنة ، غدا محترمًا في جميع المشرق ، لعلمه وايمانه وقداسته . من أهم تلاميذه : يوحنا الانطاكي ، ثيودوريطس السيري ، نرساي الفارسي ، هيبا الرهاوي ، نسطوريوس القسطنطيني . لكن منذ «الجدال النسطوري» ، بدأت الحملة ضده ، أولاً من قبل ربولا الرهاوي الذي أمر بحرق كتابات ثيودوروس كلها، إلا الكتب التي لم تكن مترجمة وقتذاك الى السريانية» ، ثم من قبل آقاق الميليطي الذي شجّع الارمن لترك تعليم ثيودوروس ، وخاصة من قبل قورلّس الاسكندري الذي اعتبره المصدر الاخير للنسطورية . حكم عليه مجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣) ، أي بعد ١٢٥ سنة من وفاته ، بكونه هرطوقيا وأب النسطورية ، من خلال الحكم على «الفصول الثلاثة» . ويظهر ان الاسباب التي جعلت المجمع ان يحكم عليه ذلك الحكم ، هي سياسية أكثر من تعليمية ، لأن الاختلاف والانشقاق الكنسي شكّل خطرا كبيرا على وحدة الامبراطورية . وليجذب المونوفيزيين ، اراد يوستينيانوس الحكم على علماء انطاكية، بطريقة غير عادلة وضد العادة الكنسية ، التي جرت ، منذ ايام الامبراطور ثيودوسيوس الثاني (نحو ٤٥٠) ، ان لا يحكم على ذكرى شخص قد توفي بسلام متحدا بالجماعة الكنسية ، وحتى قورلس كان يتفق مع ذلك . والجدير بالذكر ان كنيسة المشرق منذ البدء وما زالت تحترم ثيودوروس كمعلم كبير ، وقبلت تفاسيره وتعبيره عن الايمان كتعليمها القانوني الرسمي (مجمع غريغوريوس ١ ، سنة ٦٠٥) ، وحرمت كل من يعارضه .

- ٢ -

## عظمة المؤلفات والتفكير اللاهوتي

### أ - المؤلفات

لم يصل الينا من مؤلفاته العديدة إلا القليل في اللغة اليونانية الاصلية ، لكن بعض الكتابات المهمة حفظت بالسريانية ، وقسم منها نقلت حتى الى اللاتينية منذ القرن الخامس. لقد حفظ لنا جدول كتابات ثيودوروس (٤١ كتابا) عند عبديشوع (١٣١٨) وفي «اخبار سعرد» (القرن ١١ أو ١٣) . تنقسم مؤلفاته الى قسمَين : التفسيرية واللاهوتية . من التفاسير حُفظت لنا مقتطفات سريانية من التفسير في تك/١-٣ ، وكذلك في خر/٢٥ ، ويش/٧ ، وقض/١٣ و ١٦ ، وحفظ «التفسير في الانبياء الاثني عشر» بكامله وباليونانية الاصلية ، ومقتطفات من «التفسير في سفر الجامعة» ، وبعض المقتطفات اللاتينية من « التفسير في نشيد الاناشيد» ، وزد على ذلك ما

اكتشف في أيامنا من أقسام «التفسير في المزامير» في اليونانية والسريانية ، ومن التفاسير في العهد الجديد حُفظ لنا «تفسير انجيل يوحنا» بالسريانية وقسم مهم من «التفاسير في الرسائل البولسية» باليونانية و حفظ لنا النص السرياني من «المجـــادلة مع المقيدونيوس عن الروح القدس» ، و أخيراً وفي مخطوطة سريانية فريدة وصل الينا «كتاب المواعظ في الايمان والأسرار» التي القاها ثيودوروس في مصيصة ، خلال الصوم ليحضر الموعوظين لقبول اسرار العماذ ليلة عيد القيامة المجيد .

**ب - العصران**

وفي أكثرية مؤلفاته برز بتفسيره الحرفي العلمي للكتاب المقدس ، وفي هذا المجال يميّز بين مرحلتين ، أولهما المرحلة الارضية ، من خلال العهد القديم الماضي ، حيث لم يعرف سر الثالوث الاقدس ، والعهد الجديد، حيث أتى المسيح بالمعرفة ، بواسطة سر التجسد والعماذ والقيامة ، وحقـــق الخلاص ، الخلاص المستقبلي العتيد . وهنا بدأت المرحلة الثانية ، مرحلة الحقيقة السماوية ، حيث عدم الفساد والموت والتغيّر . فأهتم ثيودوروس بشخص يسوع المسيح الممجّد ، كمـــا قدمه مار بولس ، المسيح الكوني الذي يشمل الانسانية كلها ليجددها على صورة اللّه الاصلية . وما زلنا في المرحلة الاولى الارضية ، مرحلة الرموز ، لكن بفضل المسيح يمكننا منذ الآن الاشتراك بالحقائق المستقبلية ، بالعصر الثاني ، حيث وفرة الخلاص .

حقق المسيح إصلاح صورة الاتحاد بين اللّه والانسان ، بين الخالق والخليقة ، بانسجام تام ، وجدد هذه الصورة كالإبن ، الإرتباط الأصيل الجوهري ، وفيه يمكننا أن نصبح نحن كأبناء حقيقيين للّه .

وعلى هذا الأســـاس يميّز ثيودوروس أحياناً بين عصرين أو مرحلتين في التاريخ البشري : **العصر القديم** ، تحت سيطرة الشريعة ، **والعصر الجديد** ، تحـــت قيادة المسيح ، أو المرحلة الارضية حيث الرموز ، والمرحلة السماوية حيث الحقائق .

يقول ثيودوروس في تفسير حول الرسالة الى اهل افسس (١/ ١٠) إن القيامة قد طردت ، من الجسد ، الآلام والفساد والموت ، ومنحت النفس من جديد خلوداً ثابتاً أبدياً ، وفي الحين نفسه منح كل الخلائق من جديد رباط الصداقة . حقاً بقيامة المسيح تحقق مستقبل الانسان وهو الاتحاد بين النفس والجسد ، وبين عالم الانسان وعالم السماء . هكذا حاول ثيودوروس ان يحافظ على قيمة العالم المخلوق حتى ضمن تفسير سر التجسد والخلاص . ان المسيح هو «الانسان» الحقيقي الذي به حُقق اتحاد العالمين ، وفيه وَجدت الخلائقُ مركزها الجديد . حقا ، هذا المسيح «الكوني» هو

خير العالم وقياسه وتكملته .

وفي تفسير كول (١٦/١) حيث يتكلم مار بولس عن المسيح الوسيط في الخلق الاول ، يطبّق ثيودوروس هذا الكلام على الخلق الثاني . «تجمّع العالم وتجدّد وتكمّل في الانسان المأخوذ» . وقد كانت الخلائق كلها تنظر هذا الانسان ، المسيح البِكْر ، الذي فيه قد تمّت كل الأشياء التي ستتم فينا . وهو سبب للإنسجام والارتباط ، والفرح وتجديد الكل .

في القيامة جمع المسيح كل العالم في ذاته ، وغيّره الى عالم بدون تغيّر . فالآن قد جعل معنى العالم في المستقبل . «حسب قول الرسول «فيه خلق كل شيء» ، ليس فقط لأننا قبلنا الوعد للمستقبل ، بل لأن الارتباط الكامل يحتفظ فيه للكل . بفضل سكن الطبيعة الإلهية ...» فيه يقدّم العالم امام اللّه تعالى سجوداً أبديًا ، لان العالم قد غُيّر فيه ، الى مستقبل بدون تغيّر . وكان المسيح يكمل هذا العمل الخلاصي بطاعته الى النهاية ... وهكذا كمّل العالم ومنح له قياسه الحق وكمال المستقبل .

## جـ - ألمسيح الواحد

في ميدان المجادلة حول سر شخص يسوع المسيح ، كان ثيودوروس يدافع عن مبدئين وهما (١) الدفاع عن انسانية المسيح الكاملة روحا وجسدا ، و (٢) الدفاع عن الاتحاد بين الطبيعتين الالهية والانسانية ، حسب النعمة (الاتحاد البرصوبي) غير الجوهري الطبيعي . يكفينا في هذا المجال ان نوضح قليلا كيف فهم ثيودوروس «المسيح» ، برغم ضعف التعابير اللاهوتية المعاصرة وعدم الاتفاق حول معنى المصطلحات الخاصة ، دافع ثيودوروس عن انسانية المسيح الكاملة وبخاصّة عن تمييز الطبيعتين ، وعدم اختلاطهما في داخل الاتحاد . وليتجنب كل تفكير عن الاختلاط بين الطبيعتين ، رفض تعبير «الاتحاد الطبيعي» او «الاتحاد الاقنومي» . وفضّل تعبيرا آخر مثل «الاتحاد البرصوبي» بمعنى : الاتحاد حسب الرضى الالهي ، او حسب عطفه او محبته او نعمته ، لكنه رفض بشدة ان يفهم التمييز بين الطبيعتين في المسيح ، كأنه تمييز بين إبنين . إن المسيح هو واحد . قد تبينت قوة هذه الوحدة من تقديم المسيح كرابط للكون ، حسب النصوص البولسية . لأن نجاح الخلاص والمراجعة الكبرى ، قائمان على اتحاد الألوهية مع الانسانية في المسيح إتحادا فريدا عجيبا ، لا يمكن الانفصال ، لأنه قد تحقق حسب «لطف» اللّه وإرادته وقوة تقريره . لا يُفهم الاتحاد خارج النطاق الفكري عن الخلاص . انه مفهوم من اللاهوت الخلاصي ، وليس من الفلسفة الأونتولوجيّة (الوجودية) . في جوهر المسيح جمع بين العنصرين الارضي والسماوي ، وهو الواقع الخلاصي الواحد ، الذي يعبر حدود الزمن والمكان ، حتى في الحوادث والأعمال التاريخية : التجسّد ، العماذ ، الصلب والقيامة .